قبة المسجف

قبة ابوبية جميلة في طريق المزة [1] القديم الذي من جهة حي باب السريجة . تقع هذه القبة في مركز ممتاز قديماً فهي قرب المزة التي كان سكانها بني كلب اصهار بني أمية وأنصارهم . وتحيط بها خطط القبائل اليمنية من اكثر جهاتها ففي قبليها طريق يوصل الى كفر سوسية والى داريا وخولان ، وفي شرقها تنتشر خطط صنعاء وقينية والحميريين وكلها منازل قبائل يمنية .

أما اليوم فهي تبعد عن شرقي المزة بنحو ربع ساعة وعن شمالي كفر سوسية نحو ثلث ساعة وفي شرقيها الطريق الموصل الى باب السريجة . وموضع القبة جميل جداً فهي تقوم وسط شبه جزيرة تحيط بها جداول الماء من جميع جهاتها عدا الشرق وتظللها الأشجار الباسقة من جوز وزيتون ومشمش وحور فهي في ظل ظليل وماء سلسبيل .

ابعاد اضلاع هذه القبة اربعة امتار و (٩٥ س) تقريباً وهي تقوم على جدار قبلي فيه نافذتان صغيرتان سفليتان عن يمين محراب رشيق ويساره . وهذا الجدار مبني بالحجارة المزبة المصقولة وقد زين بسطر من الخط النسخي الجميل يبتدئ من الغرب الى داخل المحراب ثم يتم في الجهة الشرقية من الجدار وقد كتب فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة واتا الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين [2])

أما من جهة الشرق والغرب والشمال فالقبة مفتوحة تقوم في كل جهة منها على قوس يقوم على دعامتين . وقد اعتني بجبهتها الشرقية اكثر من بقية الجهات لمقابلتها القادم من مدينة دمشق فصقلت حجارة قوسها الشرقي وزينت بإطار من الخط الجميل ابتدئ به من الدعامة الشمالية ومشى الخط مع القوس حتى انتهى في الدعامة الجنوبية الشرقية وصورة ما كتب فيه (في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

(١) المزة قرية غربي دمشق تبعد عنها نحو ثلاثة آلاف متر . (٢) سورة التوبة / ١٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه [القلوب والأبصار (١)] .

قبر المسجف

شمالي هذه القبة لجهة الشرق بنحو مترين يقع قبر المسجف ويفصل بينه وبين القبة طريق يوصل الى المزة يبلغ عرضه اربعة امتار تقريباً . وهذا القبر ضمن حديقة صغيرة مسورة بسور من دك تظللها اشجار الزيتون . وكان القبر ملبساً بطبقة كلسية ازالتها مصلحة الآثار فظهرت احجاره المنحوتة التي لا تزال بجدتها . واصحاب البساتين في تلك الجهة يدفنون اولادهم الصغار الى جانب القبر ويسمون قبر الصغير خشخاشة .

جبهة قبر المسجف وخوخته

مقابل القبر لجهة القبلة جبهة بقوس يشبه القوس الشرقي للقبة الا انها آخذة في التداعي وقد سد القوس ببناء وجعل ضمنه خوخة (٢) وفوق عتبة الخوخة طاقة يوضع فيها سراج يقدم له اصحاب البساتين والقرى زيت النذور لتوقد فيه . وقد نقش على القوس بخط جميل ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابداً ان الله عنده اجر عظيم (٣) . كل نفس ذائقة الموت (٤)) .

ويجد المستقبل لهذه الجبهة عن يمينها ويسارها كتابة تتعلق بتاريخها واسم مشيدها فالكتابة التي على اليسار هي : — (١) بسم الله الرحمن هذا قبر الفقير (٢) الى رحمة الله الزكي ابو القاسم بن غنا (٣) يم بن يوسف العسقلاني المعروف (٤) بالمسجف توفي يوم الثلثا النصف من (٥) ذو القعدة سنة خمس وعشر وستما [ئة] .

والمكتوب على اليسار هو : — (١) بسم الله الرحمن الرحيم جدد (٢) عمارة هذه التربة المباركة ولده بدر (٣) الدين عبد الرحمن وكتب في مستهل (٥) رجب سنة سبع وعشر وستما [ئة] .

وينبغي ان نشير هنا الى ان عبد الرحمن هذا توفي سنة (٦٣٥) ودفن عند ابيه .

(١) سورة النور / ٣٧ (٢) الخوخة باب صغير اذا مر منه الانسان طأطأ رأسه .
(٣) سورة التوبة / ٢١ و ٢٢ (٤) سورة آل عمران / ١٨٥ والأنبياء / ٣٥ والعنكبوت / ٥٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصادر التي أشارت الى هذه القبة

لم يشر الى هذه القبة النعيمي في تنبيه الطالب ولا من اختصر كتابه . وأول من أشار اليها فيما علمت ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/ ٧٨/ ٣٤) فقد قال عن ابن عرفة انه توفي ببستان عند قبة المسجف[1] ودفن بالمزة . واشار اليها ابن عبد الهادي في ثمار المقاصد (ص ١٠٢) فقال : الحادي عشر مسجد بقبة المسجف[2] ، ثم اشار اليها محمد بن طولون تلميذ ابن عبد الهادي في كتابه المهزة فيما قيل في المزة (ص ٢٥) فنقل ترجمة عبد الرحمن المسجف عن الحافظ المنذري الذي قال عنه : انه دفن عند والده بأرض المزة فعلق ابن طولون على كلام المنذري بقوله : « قلت » وهناك قبة معروفة به وكأنها بنيت عليه والله اعلم . ويظهر من كلامه انه لم يشاهدها ليعلم ان كان فيها قبر ام لا وانما تكلم حسب المألوف من ان القبة تكون فوق القبر في اكثر الأحيان .

ترجمة المسجف

ضبط الحافظ المنذري لفظة المسجف بانها : بضم الميم وفتح السين المهملة وتشديد الجيم وكسرها وبعدها فاء .

اما ابو القاسم بن غنائم بن يوسف العسقلاني المعروف بالمسجف فلا نعرف عنه اكثر من هذه الكنية والنسبة ، واما ابنه عبد الرحمن فهو :

شاعر ايوبي اكثر شعره الهجاء . ولد سنة (٥٧٣) وتوفي سنة (٦٣٥) كان يشتغل بالتجارة وله رسوم على الملوك يحصل منها ثروة اخرى وخلف من الثروة خمسمائة الف درهم .

لا نعرف عمن اخذ ولا بمن تخرج . والظاهر انه كان ملماً بالثقافة الاسلامية الشائعة في عصره ، فقد وجدنا اسمه في قائمة تاج الدين الكندي التي عدد فيها تلامذته الذين حضروا عليه سنة (٥٩٨) قراءة المجلدة الرابعة من شرح معاني الآثار للطحاوي في المقصورة الحنفية التي كانت في الجامع الأموي بدمشق .

(١) في النسخة المطبوعة : قبة المسجد والصواب ما أثبتناه (٢) في النسخة المطبوعة : مسجد القبة المسجف والصواب ما أثبتناه كما في النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويفيد ياقوت الرومي انه اجتمع به فيقول :انشدني عبد الرحمن المسجف[١] لنفسه فقال:

اربل دار الفسق حقاً فلا يعتمد العاقل تعزيزهـا
لو لم تكن دار فسوق لما اصبح بيت النار دهليزها

وهو يتغرب في سبيل التجارة ويتنقل في البلاد فيصل الى الموصل ويشتري منه ملكها بدر الدين بن لؤلؤ الاتابكي . أما نائب الملك امين الدين فيقصر في حقه فيشير عليه الناس بمصانعته فيأبى ويقول :

يقولون لو طاب قلب الأمين رجعت بدر نفيس ثمين
فقلت أعود بلا حبـه ولا طيب الله قلب الأمين

ويحمي تجارته وامواله من الضرائب والزكاة ويجري لسانه في الدفاع عنهـا كما فعل مثل ذلك معاصره ابن عنين حينما هجا العزيز ملك مصر لأنه أخذ زكاة على تجارته[٢] فيقول ابن المسجف مخاطباً الملك المعظم :

ايا ملكا حوى علماً وجوداً وحاز لكل مكرمة وفضل
ومن هو كالمسيح[٣] اسماً وفعلا ونصباً للحيـاة وجزم محل[٤]
يكلفني اليه زكاة مالـ حرام كله من غير حل
وكيف يقوم بالزكوات من لا يصوم ولا يحج ولا يصلي
فجد بهبات ذلك لي فإني اجل زكاتكم عن مال مثلي

ولا يرى ملوك عصره جديرين بالمدح فيوضح سبب مدحهم فيقول :

انا في جيل خسيس وقبيل وزمان
امدح السلطان كي يصبـح مالي في امان
اكذا كان ابو تمام قبـلي وابن هـاني

(١) معجم البلدان طبع مصر ٢ : ٣٢٥ : واوروبا ٢ : ٧٨١ وقد ورد فيها ابن المستخف بدلاً من [ابن المسجف] وهو تصحيف من الطابعين . (٢) قال ابن عنين :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالهما هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

ابو الفدا [٣ : ١٥٨] (٣) المعظم اسمه : عيسى (٤) فوات الوفيات [١ : ٢٥٩]
وفي الأصل [ونصب للحياة وحزم مجل] ووضع المصحح اشارة الاستفهام في هذا الشطر . ولعل الصواب ما أثبتناه ويذهب أستاذنا الفقري الى أن الصواب في هذا البيت [ونصباً للحياة وخرص حل]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحضر محيي الدين ابن الجوزي دمشق رسولاً من قبل المستنصر بالله العباسي فاتفق ان توفي اربعة من السلاطين العظماء وهم الملك الكامل صاحب مصر واخوه الملك الأشرف صاحب دمشق والملك العزيز صاحب حلب و كيقباذ صاحب الروم فقال في ذلك مخاطباً الخليفة :

يا امام الهدى ابا جعفر المنصور يا من له الفخار الأثيل
ماجرى من رسولك محيي الدين في هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى وغدا والديار منهم طلول
اقفر الروم والشآم ومصر افهذا مغسل ام رسول

هذا خلاصة ما اطلعنا عليه من ترجمته . اما مصادرها فهي :

المعزة فيما قيل في المزه لابن طولون (ص ٣٥) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١/٢٥٧) اجازة تاج الدين الكندي في آخر المجلدة الرابعة من شرح معاني الآثار للطحاوي صورة الاجازة مصورة عن نسخة خطية كانت عند الأستاذ الشيخ حمدي السفرجلاني . تاريخ ابي الفدا (٣/١٦٤) معجم البلدان لياقوت طبع مصر ٢/٣٢٥ وطبع اوروبا ١/٧٨١

ترميم القبة

منذ عشر سنين خلت سطا على هذه القبة بعض الأشقياء ممن يعتقدون في الكنوز فحفروا وسطها حتى نبع الماء في الحفرة ثم رجعوا اليها في اوقات مختلفة واخذوا يقلعون الأحجار من دعائمها الشرقية ظانين ان وراء الأحجار التي عليها الكتابة أموالاً مكنوزة يفعلون ذلك ليلاً حينما يخلو الطريق من المارين كما اخبرني بذلك بعض أصحاب البساتين المجاورين لها . وعبثاً كان اقناعي لدائرة اوقاف دمشق في المحافظة عليها وارجاع الأحجار المقلوعة الى اماكنها . وفي العام الماضي اخبرت صديقي الأمير جعفر الحسني بقصتها فزارها واهتم بأمرها ولم تمض برهة من الزمن حتى بشرني بالشروع في ترميمها بمباشرة مهندس مصلحة الآثار السورية المسيو آمي الذي نقدر له جهوده الطيبة نحو الآثار العربية الاسلامية وقد تمت الأعمال الأولية لها (سنة ١٩٤٣) وأنقذت هذه القبة من الانهيار فللأمير النبيل وللمهندس القدير جزيل الشكر على عملهما المبرور .

محمد احمد دهمان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net